على هامش زيارة البطريرك لأميركا الشمالية

"ما يرى وما لا يرى"

بقلم الدكتور وليد فارس

ميامي في ٣٠ نيسان ٢٠٠١

إن قراءة التقارير الصحافية ومشاهدة اللقطات التلفزيونية التي غطت زيارة غبطة البطريرك الكاردينال مار نصرالله بطرس صفير للولايات المتحدة وكندا الشهر الماضي قد تعطي فكرة هامة عن جولة غير اعتيادية لمسؤول روحي مميز الى الدولة الاعظم في ادق المراحل التاريخية. إن ما شاهده المواطن والمراقب عبر الاعلام، على أهميته وجديده، هو بالفعل "ما يرى" من الزيارة البطريركية. الا أن لهذه الجولة، وجه آخر، قد تخطى الذي "يرى"، اكان ذلك على صعيد المعادلة السياسية الديبلوماسية ام على الصعيد الاغترابي ـ الحزبي. ومهما كانت تقييمات جولة البطريرك، اكانت اتية من من يؤيدها ويدعم اهدافها ام الآتية من من لا يؤيد اسبابها ونتائجها، فالمراقبة الدقيقة للمعادلات التي سبقت الرحلة، والاسباب التي أدت الى اتخاذ القرار بهذه الزيارة، بالاضافة الى حصادها المحتمل انما تشير الى احداثها لتغيير جذري مهم، أكان على صعيد نتائجها المباشرة ام تلك غير المباشرة. وسنسعى في هذه الدراسة المقتضبة أن نحلل ما يرى وما لا يرى في تلك المحطة الاساسية من تاريخ بكركي الحديث.

الموارنة في الولايات المتحدة

السؤال الاول هو حول حجم الموارنة وقدراتهم في الولايات المتحدة الاميركية. اذ انه لا حاجة لنقاش اسباب زيارة أقوى دولة على الكرة الارضية. فالجميع يعلم، وليست هنالك حاجة الى محلل سياسي، بان واشنطن هي عاصمة القرار الدولي، وهي عاصمة لأقوى دولة على مختلف الاصعدة الديبلوماسية والعسكرية والاستراتيجية والاقتصادية وغيرها. وقد علمتنا الازمات الاقليمية في البوسنة وكوسوفو وتيمور الشرقية والصراع الفلسطيني ـ الاسرائيلي خلال التسعينات أن القرار الاميركي بات رئيسيا في حسم اتجاه او آخر في السياسة الدولية تجاه تلك القضايا والازمات. هذا هو واقع قائم ايا كان رأينا به وفيه. الا انه يبقى عامل آخر، وهو حجم وقدرات الجاليات التي تعمل ضمن الولايات المتحدة لمصلحة قضاياها، ومنها الجالية المارونية، وبشكل عام الجالية اللبنانية.

تاريخيا، وصل الموارنة الى الولايات المتحدة، وبالتالي الى كندا، عبر دفعات كبرى. الموجة الاولى وصلت في نهاية القرن التاسع عشر على أثر مذابح ١٨٦٠ والمصاعب الاقتصادية لجبل لبنان. والموجة الثانية وصلت خلال وبعد الحرب العالمية الاول، على أثر الحصار العثماني لجبل لبنان. والموجة الثالثة وصلت على مراحل منذ بدأ الحرب اللبنانية عام ١٩٧٥، ومرحلتها الراهنة قد بدأت منذ اوائل التسعينات. عدديا، ليست هنالك ارقام دقيقة لعدد الموارنة الا ان مختلف التقديرات تشير الى وجود أكثر من مليون ومئتي ألف اميركي ـ ماروني، ضف اليهم ربع مليون أو أكثر من الاميركيين المتحدرين من اصل لبناني مسيحي. اما بالنسبة الى اللبنانيين المسلمين، فهنالك ارقام أخرى. اما في كندا فالتقديرات تشير الى وجود حوالي ٤٠٠ إلى ألف ماروني وأكثر من مئة الف من الطوائف اللبنانية المسيحية الأخرى.

وتشير الدراسات ان أكثرية الموارنة واللبنانيين المسيحيين هم من الطبقة الوسطى، باستثناء بعد الوافدين الجدد من لبنان. والمعروف ان هنالك أثرياء موارنة كثر ولا سيما من الموجتان الاولى والثانية. اما سياسيا فقد تمكن افراد موارنة ومسيحيين لبنانيين من لعب دور بارز في مختلف الادارات الاميركية ولا سيما الحديثة، ووصل مواطنون اميركيون موارنة ولبنانيين مسيحيين الى الكونغرس الاميركي مرارا. اما على الصعيد الفني والثقافي، فقد لمعت اسماء لبنانية مارونية ومسيحية في السماء الاميركية. ودون ان ندخل في التفاصيل والارقام والتسميات، فلقد بات واقعا ان عدد الموارنة وانتشارهم وقدرتهم الاقتصادية وانجازاتهم الفردية على الاصعدة السياسية والثقافية جعلت منهم مجموعة ذات حجم وقدرات تمكنها من التأثير في السياسة الخارجية تجاه الوطن ــ الام، لبنان. ويجب الاشارة الى أن الكنيسة المارونية الاميركية لها وجودها واحترامها المميز لدى الكنيسة الكاثولكية الاميركية، وتتمتع باحترام خاص من ممثلي الفاتيكان في الولايات المتحدة. الا انه يجب الملاحظة أن الجالية المارونية والمسيحية اللبنانية لم تفجر طاقاتها كاملة في اي اتجاه خلال العقود السابقة. فما قد تقدمت به لصالح "القضية اللبنانية" هو جزء صغير جدا من طاقاتها الحقيقية. ولنا عودة الى دراسة اسباب هذه الظاهرة في دراسات مقبلة. الا ان الواقع الذي رسمناه، وهو الحجم العملي والقدرة النظرية لهذه الجالية، بحد ذاتهما، يبرران اعتماد البطريرك الماروني عليهما ويعللا قراره بزيارة تلك الجاليات وتعبئتها. إن مجرد وجود أكثر من مليون ماروني في الولايات المتحدة، هو سبب استراتيجي مركزي لقرار البطريرك بالتوجه اليهم وحثهم على التحرك. هذا، بغض النظر عن قدرتهم السابقة أو الحالية في الضغط الفعلي على الادارة الاميركية. ويبقى السؤال التالي: هل تمكن الموارنة الاميركيين سابقا في لعب دور سياسي اساسي في واشنطن ؟

الموارنة الاميركيين والقضية اللبنانية

لقد لعبت الجالية اللبنانية، ولا سيما الطائفة المارونية في الولايات المتحدة، دورا بارزا خلال الاحداث ما بين ١٩٧٥ و ١٩٩٠ وفيما يتعلق دعم القضية اللبنانية. وقد تركزت جهود فعاليات هذه الجالية على مسألة خروج القوات الاجنبية من لبنان، ولا سيما بعد التدخل الاميركي في العام ١٩٨٢ على أثر الاجتياح الاسرائيلي والمواجهة مع الفلسطينيين والسوريين. تحرك الموارنة واللبنانيين الاميركيين من أجل جلاء القوات الاجنبية كان قد بدأ في اوائل الحرب ما بين ١٩٧٥ و١٩٧٨ وقد تميزت اقسام الاحزاب المؤيدة للجبهة اللبنانية داخل الولايات المتحدة في قيادتها لتلك الحملات. فقد قامت فروع الكتائب والاحرار وشخصيات مارونية ــ أميركية بارزة بحملات متعددة لمواجهة ماكنية المنظمة الفلسطينية الاعلامية خلال السنوات الثلاثة الاولى. وقد تكللت هذه الجهود بنجاح نسبي عام ١٩٧٨، عندما اصدر مجلس الامن للامم المتحدة القرار طالبا وقف النار بين الجيش السوري والقوات اللبنانية. مما اعطى الشيخ بشير الجميل فرصة لتصعيد التحرك بهذا الاتجاه. وفي العام ١٩٨١، تجددت الحملات في الولايات المتحدة، مساهمة في وضع خطوط حمر حول ما كان يسمى بالمناطق الشرقية. وقد لعب مكتب القوات اللبنانية في واشنطن والرابطة الاميركية اللبنانية والابرشية المارونية دورا اساسيا في رفع مستوى طرح الجبهة اللبنانية في لبنان الى دوائر الخارجية والى البيت الابيض. وقد تصاعد ضغط "اللوبي اللبناني والماروني" تدريجيا ليبلغ دوره الاقصى عام ١٩٨٢ مع انتخاب بشير الجميل رئيسا للجمهورية. وبات مسؤولي القوات اللبنانية وقياديو الرابطة الاميركية ــ اللبنانية وغيرهم من وجهاء الجالية يجلسون مع كبار مسؤولي ادارة ريغان للمساهمة في رسم للسياسة الاميركية تجاه لبنان. وقد تجلى هذا الحضور المكثف في صدور قرار تاريخي عن مجلس الامن، رقم ٥٢٠ في ١٨ أيلول ١٩٨٢ ، والداعي الى سحب كل القوات الاجنبية من لبنان بما فيها الاسرائيلية والسورية. الا ان، من الضروري الاقرار بأن تعبئة المجتمع الدولي ضد الاحتلالات الاجنبية في لبنان لم يكن فقط نتيجة لقوة "اللوبي" الماروني او اللبناني، بل ايضا نتيجة للمعادلة الدولية ــ الاقليمية

التي صنعت ميزان قوى جديد فرض على واشنطن التدخل بحزم لصالح سحب القوات الاجنبية من لبنان. ولعل أوضح برهان عل? ذلك، قد تجلى بالتغيير الجذري الذي طراء على الموقف الاميركي حيال وجود الجيش السوري في لبنان بعد انهزام القوات المتعددة الجنسيات والانسحاب الاسرائيلي الى الحزام الامني، وعودة القوات السورية الى مواقعها السابقة. فبالرغم عن تحرك "اللوبي" المذكور ما بين ١٩٨٥ و ١٩٩٠، لم يتغير موقف واشنطن من قبول الدور السوري في لبنان. اذ ان هنالك اسباب عديدة لم تمكن الثقل الماروني في الولايات المتحدة من التأثير أنذاك، واهم الاسباب، انقسام القوى المارونية على ذاتها داخل لبنان.

اما في التسعينات، فقد تجددت حيّوية التيارات المارونية واللبنانية في الولايات المتحدة بشكل متصاعد، مما اعادها الى طاولة مجموعات الضغط في واشنطن. ويمكن الاشارة الى الكثير من الانجازات، منها ما هو مرئي ومنها ما لم يتم اعلانه حتى الآن. وقد تبوح الايام المقبلة ببعض الحقائق والوقائع، ولا سيما بعد زيارة البطريرك الاخيرة.

معادلة بكركي والخطوط الحمر

في عودة الى بكركي في التسعينات، يمكن الاستخلاص بان البطريرك كان قد رسم معادلة وطنية معّنية ترافقها خطوط حمر، هي التي حددت أطر التحرك البطريركي في توقيته واسبابه وظروفه. فالبطريرك صفير هو احد الاعمدة الفقرية المسيحية لاتفاق الطائف. وبعض النظر عن كامل مسألة فلسفة اتفاق الطائف وآليته وما نتج عن ذلك داخل ما كان يعرف بالمنطقة الشرقية وقتها، وقف البطريرك صفير وراء هذا الاتفاق معتبرا اياه الخارطة السياسية الجديدة للبنان ومعتبرا تنفيذه الخطوط الحمر التي لا بد ان لا تخرق. وبديهي القول أن المسألتين الاساسيتين اللتان شكلتا ارضية المعادلة كانتا: البدء بالانسحاب السوري في لبنان، واقامة مشاركة متوازنة بين المسيحيين والمسلمين في الحكم والحكومة والنظام. وقد اعتبرت بكركي ان الفاتيكان هو ضمانة عليا لاتفاق الطائف، بالاضافة الى الولايات المتحدة.

خرق الخطوط

وإذ بالسنوات تمر والخطوط الحمر تمزق الواحدة تلو الأخرى. إذ أن عدم انسحاب القوات السورية بعد أيلول ١٩٩٢ ، وحل القوات اللبنانية، وتصعيد القمع السياسي واستمرار ابعاد العماد عون، بالاضافة الى مسائل أخرى متعددة، اعتبرت خرقا شاملا لاتفاق الطائف وبالتالي دعوة للتحرك البطريركي. وقد باتت بكركي تحت واقع الضغط الشعبي اليومي، حتى ان حوادث العام ٢٠٠٠ ظهر المعادلة. واذ بثلاثة اشارات تفتح باب التحرك البطريركي. اولا، انسحاب اسرائيل من جنوب لبنان في ايار، الذي افقد الوجود السوري مشروعية توازنه مع "الشريط المحتل". ثانيا، غياب الرئيس السوري حافظ الاسد، الذي فتح بابا جديدا في دمشق مع احتمالات متعددة امام الرئيس بشار. وثالثا، تغيير تدريجي على الارض المسيحية في لبنان والاغتراب، وهو تغيير نتج عن تصعيد في القمع، وحملة على الكنائس من ناحية، وتصعيد في المعارضة الشعبية والتحرك الاغترابي من ناحية أخرى.

قرار الرحلة والاهداف

علما بان آلية اتخاذ القرار البطريركي في الذهاب الى الولايات المتحدة ليس واضحا بعد، إلا أن المعادلة التي دفعت بسيد بكركي إلى زيارته باتت واضحة يوما بعد يوم. خلال التسعينات، صدر كلام كثير عن ضرورة زيارة رأس الكنيسة المارونية

للولايات المتحدة. إلا أن جواب بكركي كان دائما أن الزيارة لن تتم إلا بعد الحصول على ضؤ أخضر من البيت الأبيض لحصول لقاء مع الرئيس الأميركي. إلا أن التحليل الأعمق لهذا الموقف يشير إلى تمنع الكاردينال الماروني من "المخاطرة" بزيارة إلى واشنطن، في وقت لا تزال المعادلة الإقليمية متحكمة بلبنان. فإما أن يدخل البيت الأبيض ويحصل على غطاء دولي، واما أن لا يخاطر بأن يخرق المعادلة الإقليمية.

إلا أن التغيير الإقليمي، الإسرائيلي في الجنوب، والسوري في دمشق، قد فتح نافذة أمام سيد بكركي، سرعان ما تحكم بها. وبكلام آخر، ما أن تراجعت إسرائيل إلى ما وراء حدودها، وما أن تغّير الوضع في سوريا، ولو مرحليا، لم تعد هنالك حاجة إستراتيجية للقاء الرئيس الأميركي كشرط للزيارة. وما لم يدركه الكثير من المراقبين للرحلة، هو أن البطريرك الماروني قد استفاد من تركيز الجميع على زيارة البيت الأبيض كشرط لنجاح الرحلة، بينما مراهنته الحقيقة كانت بحجم زيارته للبيت اللبناني في الولايات المتحدة، كشرط لنجاح رحلته إلى أميركا الشمالية. فالرئيس الأميركي هو رأس هرم في قوة عظمى، اعظم ما فيها هو الرأي العام وقوته. والقوة الرئيسية في رفع القضية اللبنانية إلى رأس الهرم الأميركي، ليست زيارة بطريركية إلى البيت الأبيض، بل تفجير لطاقات الجالية المارونية واللبنانية باتجاه الرأي العام الأميركي. وهذا كان بيت القصيد. والمضحك في المناورات والتحركات السياسية التي سبقت ورافقت الرحلة البطريركية للولايات المتحدة، هو تركيز القوى المتضررة من الرحلة على إفشال اللقاءات المحتملة مع الرئيس الأميركي وكبار المسؤولين، بينما كان البطريرك يحقق الانتصار تلو الآخر في الساحة التي اختارها منذ البداية، وهي شعبه الماروني المنتشر وذو القدرات المهمة.

على الصعيد الحكومي

خلال الأعوام السابقة جاء الرد من البيت الأبيض على الذين استفسروا عن احتمال لقاء بين البطريرك الماروني والرئيس الأميركي كما يلي. "إننا نكن كل المودّة والاحترام لغبطة البطريرك إلا أن الرئيس لا يستقبل رسميا إلا رؤوساء الدول ومسؤوليها الرسميين". وبالطبع فهذا الجواب لم يكن صحيحا، إذ أن البيت الأبيض كان قد استقبل مرارا رؤوساء كنائس وطنية خارجية ورؤوساء ديانات كالدلاي لاما وكرادلة ومطارنة كاثوليك من أميركا اللاتينية كالأسقف روميرو من نيكاراغوا والأسقف دزموند توتو من جنوب أفريقيا. فلماذا إذا تمنع البيت الأبيض عن استقبال البطريرك الماروني ؟ الجواب هو أن عدم الاستقبال في الماضي كان بسبب أهمية البطريرك الكبرى وليس العكس. فان مجرد استقبال الأسقف الكاثوليكي الأهم في الشرق الأوسط إنما له معان استراتيجية كبرى. ومن أهم تلك الأبعاد، الاعتراف بان للأسقف الانطاكي رسالة يوّد أن يسلمها إلى رأس العالم الحر. وكان معلوما لدى الجميع أن الرسالة الوحيدة التي سيأتي بها الرئيس الروحي للموارنة إلى واشنطن هي المطالبة بالانسحاب السوري واعادة توازن الوضع اللبناني الداخلي. والمعلوم أيضا أن السياسة الشرق ـ أوسطية للولايات المتحدة خلال التسعينات لم تكن راغبة في الانزلاق إلى أي موقع تصادمي مع سوريا حافظ الأسد، وبالتالي إفساد حظها في توقيع اتفاق سلام مع إسرائيل، لذا فالمصلحة الديبلوماسية العليا قضت بعدم فتح الباب، أمام رمز أكبر من أن تستوعب زيارته بروتوكوليا فقط. ضف إلى ذلك التدخل المستمر للدولة اللبنانية واللوبي العربي لدى الإدارة الأميركية لمنع حدوث هذه الزيارة للبيت الأبيض.

أما بعد انتخاب جورج دبليو بوش رئيسا، فقد فتحت ثغرة صغيرة في المعادلة. فالرئيس الجديد لم يحدد كامل تفاصيل سياسة عهده تجاه المنطقة ولبنان. فالممانعة الكاملة لم تعد سارية، إلا أن القبول بفتح الباب كاملا لم يكن متوافرا بعد. مما حمل بعض الذين حاولوا الحصول على موعد، الاعتقاد إن المعادلة قد تغيّرت جذريا. أما في الحقيقة، فهي أن المعادلة قد تغيّرت إنما

ليس بالحجم المطلوب. هنا يجب الإشارة، دون الدخول في التفاصيل، انه انوجد تياران من الذين أبدوا رأيهم لسيادة البطريـرك حول مسألة اللقاء مع الرئيس بوش. فريق أول كان متأكدا من حصول اللقاء، وقد اعتمد كليا على عاملين. الأول هـو تدخـل الكنيسة الكاثوليكية لدى البيت الأبيض. والعامل الثاني هو الاتكال على نفوذ النواب الأميركيين الموارنـة، ولا سـيما النـائب الجمهوري راي لحود. أما الفريق الثاني من الذين تقدموا برأيهم، فقد طلب بسلسلة اجتماعات سياسية تحضيرية تؤدي طبيعيـا إلى لقاء الرئيس. إذ أن الفريق الثاني نظر إلى الزيارة من زاوية المنهجية الأميركية بينما الفريق الأول نظر إليها من خـلال منهج التعاطي اللبناني. وقد ظل شبح حصول اللقاء أم عدم حصوله عائما فوق الوفد البطريركي حتى يوم مغادرته واشـنطن. وقد صحّت النظرية القائلة بان اللقاء بين البطريرك والرئيس الأميركي يحتاج إلى أكثر من تدخل بروتوكولي من قبل الكنيسـة الكاثوليكية الأميركية والى مجموعة أكبر من النواب اللبنانيين الثلاثة في الكونغرس. فالميزان هو بين ضغط اللوبـي المؤيـد للنظام اللبناني وسوريا، وبشكل عام الكتلة العربية ــ النفطية من جهة وبين ضغط اللوبي المؤيد للمطالبين بانسحاب السـوريين من لبنان. ومن الواضح أن اللوبي الضاغط لجهة بقاء الجيش السوري حاليا قد انتصر في هذه الجولة على اللوبـي المطـالب بانسحاب هذا الجيش. ومن المنطقي القول بأنه لو لم يكن البطريرك مصرّا على التقدم بهذه المطالبة إلى الرئيـس الأمـيركي، لربما كان حصل الموعد. إلا أن خوف مهندس القرار الأميركي تجاه لبنان والشرق الأوسط من اقتحام سيد بكركـي للبيـت الأبيض بهكذا مطلب، في الوضع الراهن، هو السبب المركزي لعدم حصول هذا اللقاء. وذلك يعني أن حجم البطريرك وأهميـة ما يطالب به قد اصطدما بمعادلة قائمة، لم يجري تفكيكها بعد. إلا أن اللقاءات التي عقدها البطريرك صفير في الكونغرس قـد شكلت بداية عملية لإرساء معادلة جديدة لم تكن موجودة خلال العقد المنصرم. فالغذاء الذي جمع الكاردينال بمجموعة لا بـأس بها من أعضاء مجلس النواب، والاجتماع برئيس هذا المجلس، ولا سيما الاجتماع المطول مع رئيس لجنة الشرق الأوسط فـي مجلس الشيوخ، السناتور سام براونباك، يشكلون بنظرنا دخولا مهما إلى قلب الدوائر التشريعية الأميركية، صاحبة القرار فـي مسائل الشرق ــ الأوسط. فلقد سمع هؤلاء المشرّعون، وهم الكتلة التي يجب أن تصغي إليها وزارة الخارجية والإدارة عندمـا ترسم السياسيات الخارجية، كلاما واضحا من البطريرك صفير. وممكن القول، أن هذا الجسر مع الكونغرس الأميركي، هـو الخطوة الأولى والأساسية في شق طريق إلى الإدارة، ومنها إلى الرئيس. ولكن البطريرك، وان شق الطريق، فيبقى فاتحـا وموقعه هو لبنان. إن ما سيجعل من هذا الفتح طريقا مفتوحة هو المتابعة التي يجب أن يعمل لها اللوبي المـاروني واللبنـاني المسيحي بعد عودة البطريرك. وهنا بيت القصيد، وهكذا متابعة لا بد وأن تترجم من خلال توضيح صورة "القضية اللبنانيـة" في الإعلام، تجميع وتوحيد الجهد اللبناني التنظيمي في الولايات المتحدة، وتعبئة الجاليات في هذا الاتجاه. فهل هذا تحقق ؟

البطريرك والإعلام الأميركي

من يربح الإعلام الأميركي، يربح أميركا. وقد صح هذا القول لكل الساعين إلى ملاحقة قضاياهم الوطنية لدى القوة الأعظـم. والسؤال هنا هو التالي: هل كان لفريق البطريرك خطة إعلامية وهل نجحوا في تنفيذها. الجواب هنا، ليس بالنسبة لمـا نقلـه الفريق الإعلامي المرافق إلى الصحافة اللبنانية. فعلى هذا الصعيد، مما لا شك فيه أن وقع الزيارة لدى المجتمع اللبناني، كـان كبيرا. وليست مظاهرة الاستقبال في بكركي إلا نتيجة للتغطية التلفزيونية المستمرة. السؤال هو حول ما ظـهر فـي الإعـلام الأميركي. والجواب هنا، يستلزم صراحة أكاديمية كاملة. فعلى الرأي العام اللبناني، والمسيحي خاصة، أن يفهم انه قد يكـون اسهل على أي كان الدخول إلى البيت الأبيض من الدخول إلى قلب الإعلام الأميركي الهائل حجما وكما وتأثيرا. والتأثير علـى العالم الإعلامي الأميركي هو علم قائم بحد ذاته قاعدته العلوم السياسية والإعلامية والاجتماعية بالإضافة إلى قدرات تنظيميـة

ومالية ونوعية معيّنة من الكاريسما الشخصية. الرحلة البطريركية دون شك لم تكن مهيأة للاجتياح الإعلامي الكبير ليس بسبب عدم أهمية الخطاب البطريركي، بل بسبب عدم وجود أرضية تحضيرية للقضية ككل، وليس للرحلة بحد ذاتها. وتلك مسألة لا تتعلق ببكركي فحسب بل بكل من دافع عن هذه القضية لربع قرن من الزمن. والقصة هنا طويلة جدا.

على صعيد الإعلام الأميركي العام، أي الوسائل الكبرى العلمانية ذات التأثير الوطني والعالمي، فلقد سجل البطريرك بعض الخروقات في مختلف المدن التي زارها. وقد توجت هذه الريبورتاجات والمقالات بمقابلة مع ال "س.ن.ن" ومقال في ال"واشنطن بوسط". إلا أن العالم الإعلامي الأميركي هو كوكب بحد ذاته، فالصحيفة اليومية لأصغر المدن، تطبع أكثر من أكبر يومية في لبنان أو العالم العربي. والقصف الإعلامي اليومي، بل الساعاتي، الذي يجرف الأخبار بعد الأخبار، يجعل من أي خروقات محدودة، موجة زائلة، ما لم تلحقها موجات أخرى مثيلة.

إلا أن التسجيل الحقيقي للبطريرك كان من خلال تأثيره الواضح على الصحافة والإعلام الكاثوليكي الأميركي. إذ أن وسائل الإعلام الكاثوليكية، التي تؤثر على أكثر من مليون كاثوليكي في الولايات المتحدة، قد خصصت مساحات مهمة، أن في محتواها أو عناوينها، لرسالة البطريرك. ومن خلال هذه الشبكة الواسعة، قراء ملايين الأميركيين الكاثوليك عن ضرورة انسحاب السوريين من لبنان، وعن دور الموارنة في الشرق. وهنا يمكن القول، إن جسرا قد إنوجد ما بين بكركي ، وأصغر رعية كاثوليكية في الولايات المتحدة. والخلاصة تبقى واحدة. من سيتابع هذا العمل داخل ارض العم سام، وما هي الخطوات اللاحقة ؟

البطريرك والأحزاب

مما لا شك فيه أن الهاجس الأكبر لدى البطريرك ومطارنته كان وحدة الأحزاب اللبنانية في الولايات المتحدة. وقد تفاجئ قياديو الأحزاب اللبنانية بان هواجس كنيستهم هي أكبر من واقع الحال. فلقد شهد العام ٢٠٠٠ سلسلة خلوات واجتماعات بين قيادات القوات اللبنانية والتيار العوني والكتائب والأحرار والاتحاد الماروني أدت بأقل الأمور إلى خلق حال من التنسيق الدائم بينها، متخطية الحروب الحزبية القديمة التي ولدت في اواخر الثمانينات واوائل التسعينات في لبنان. وقد تفاجئ الوفد البطريركي بوحدة صف حزبية في كل مدينة وبلدة أميركية وكندية تمت زيارتها. وقد تخطت الأحزاب توقعات الكنيسة بتقديم مذكرات مشتركة وبحضور الاجتماعات من خلال وفود مشتركة، وباستعمال خطاب سياسي دقيق، أخذ من بيان المطارنة في ٢٠ أيلول الماضي سقفا له.

وواقعي القول، إن التنظيمات الحزبية في أميركا الشمالية لاقت الوفد البطريركي بحد أدنى من رص الصفوف عارضة نفسها للعمل المشترك. إلا أن القيادات الكنسية المحلية، وهي بعيدة نسبيا عن واقع العمل الحزبي داخل لبنان وعن ظروفه، لم تلاقي القوى الحزبية اللبنانية بنفس المنطق الاستراتيجي. فالتفاهم كان أكثر تقدما ما بين بكركي، التي تعرف تفاصيل الحياة السياسية في لبنان، وبين المؤسسات الحزبية في الخارج، مما هو قائم بين القيادات الروحية المحلية وممثلي التنظيمات اللبنانية في رعاياها. ولعل هذا الفارق يأتي من جراء الواقع السياسي المختلف. إذ أن بكركي قد عاشت الحرب وما بعدها داخل الوطن، وتعرف أهمية التيارات الشعبية والوطنية. أما رؤوساء وكوادر الكنيسة في الولايات المتحدة، فهم ينظرون إلى تلك التيارات كعوامل تفرقة، وظواهر امتداد للصراع في لبنان. وقد بات واضحا أن المسؤولين المحليين في الكنيسة قد خففوا من أهمية لقاءات الأحزاب مع البطريرك وركزوا على بعض الشخصيات المالية المشهودة لها أعمالها الخيرية ضمن الرعايا. وقد وجدت القيادات الحزبية صعوبات كثيرة في تنظيم لقاءات إستراتيجية مع البطريرك بسبب إمساك الكنيسة المحلية ببرنامج الزيارات.

لذا، فان لقاءات الآلة الحزبية اللبنانية بسيد بكركي قد نجحت إعلاميا ولم تعطي ثمارا استراتيجية على صعيد المحتوى. ولعل أهم إنجاز للبطريرك كان في لقاءاته لقيادات القوات والعونيين والكتائب والأحرار والاتحاد الماروني في واشنطن حيث اتخذ قرار مبدئي بتشكيل لجنة تنسيق بين هذه القوى، على أساس متابعة بيان ٢٠ أيلول مع الرأي العام والحكومة الأميركية. والمفارقة هنا، أن هذا الاجتماع كان الأهم على الصعيد الاستراتيجي، لانه خطوة أولى في إرساء الجسر القومي بين لبنان "المحتل" ومجموعة القيادات اللبنانية العاملة في أهم مكان على سطح الكرة الأرضية. الا ان هذا الحدث أظهره الأعلام اللبناني المرافق والكنيسة المحلية، كمناسبة من بين عشرات المناسبات السياسية والاجتماعية التي رافقت رحلة البطريرك. فلم يدرك الرأي العام اللبناني بشطريه المقيم والمغترب، بان اجتماع واشنطن قد يصلح لأطلاق آلية، ينتظرها الجميع منذ أكثر من نصف عقد.

البطريرك والجاليات

لعل أهم ما تحقق خلال رحلة البطريرك الى أميركا الشمالية كان التعبئة لدى الجاليات المارونية واللبنانية في الولايات المتحدة وكندا. فلننظر الى المعادلة من زاوية الجاليات. هناك نظرية تقليدية في لبنان، وفي الأوساط السياسية المسيحية التقليدية تقول بان الخلاص يأتي من الخارج، والخارج هو الولايات المتحدة، وهذه الأخيرة ليست الا مجموعة مصالح تعبر عنها الإدارة. وهذه النظرية تؤمن بأنه لا حاجة لتحركات شعبية أو مقاومة داخلية. اذ عندما تقتنع الإدارة بتغيير المسار، يتغير هذا الأخير. الا ان هنالك نظرية أخرى اكثر اعتمادا على التحرك النضالي. وهذه الأخيرة تؤمن بان على من يريد التغيير، عليه ان يعمل عليه. وانطلاقا من هذه النظرية، لا بد من تعبئة الجاليات اللبنانية في الولايات المتحدة لتساعد على تغيير المسار تجاه لبنان. والأرقام هنا مهمة. فالموارنة في أميركا أضعاف طائفتهم في لبنان، عددا وقدرات شخصية. اذ ان هنالك لبنان ماروني مسيحي لبناني كامل قائم في حد ذاته ضمن أقوى قوى عظمى اليوم. وهذا "اللبنان" ليس تحت الاحتلال السوري ويتمتع بكامل حقوق المواطنية الأميركية. ومن المنطقي جدا ان يتوجه البطريرك الى هذا الشعب الماروني ـ اللبناني المنتشر طارحا عليه القضية اللبنانية. والذي يقرأ خطاب البطريرك بتمعن، يستخلص منه إرشاد بطريركي واضح وهو التالي: الجالية المارونية في أميركا الشمالية هي اليوم في الموقع الأهم في عملية تحرير لبنان. البطريرك قال للجماهير المحتشدة مرارا: " انتم أميركيون، ولكم أصواتكم الناخبة ولكم اتصالاتكم مع حكومتكم". هذا التوجه الواضح إنما هو بمثابة نداء من داخل لبنان الى هذا "اللبنان الاخر" لنجدة الوطن الام. وبتقديرنا، فان الجالية قد فهمت النداء الذي وجّهه اليها البطريرك.

ولنكن واضحين، فالموارنة واللبنانيين في الولايات المتحدة لم يكونوا على معرفة دقيقة ولا على فهم واضح لحال الوضع في داخل لبنان. فتأثير الاحزاب والمنظمات لم يتعدى الأخيرة. اما الاكثرية الساحقة، فهي من الموجات الاغترابية الاقدم، وتتكل اما على توجيه الاعلام الاميركي العام واما على توجيه الكنيسة الاغترابية. وفي الحالتين، لم تسمع تلك الجاليات الواسعة كلاما واضحا على الاحتلال السوري منذ بداية التسعينات. فلو كان خطاب البطريرك في العام ٢٠٠١ متوافرا من خلال الكنيسة المارونية الاميركية والكندية منذ العام ١٩٩١ ، لما كان احتاج سيد بكركي الى عناء هذه الزيارة الطويلة، ولكان وقف على باب البيت الابيض بقوة، مطالبا بأكثر مما يطالب به اليوم.

بكلام ابسط، فلقد قام البطريرك صفير في هذه الرحلة بما كان يجب ان يقام طبيعيا منذ أكثر من عقد او منذ ربع قرن، من قبل كل المؤسسة الوطنية المارونية. وعلى الرغم من تأخر القطار، فقد لبت الجاليات طبيعيا نداء كانت تنتظره منذ سنوات. إن من يحلل خطب البطريرك وموقفه الصلب وردة فعل الجماهير الاغترابية، يفهم تماما ان قطار الاغتراب قد انطلق باتجاه قضية

جلاء السوريين، من دون رجعة. ومهما كانت التفاصيل والانتقادات والاقتراحات التي رافقت او تبعت لقاء البطريرك بشعبه في الولايات المتحدة، فلقد خلّف رئيس الكنيسة المارونية وراءه حالة ستدخل في قوة ميزان المعادلة التي اختلت لغير صالح المسيحيين اللبنانيين منذ أواخر الثمانينات. فأكثرية الجالية المارونية اللبنانية في اميركا الشمالية فهمت الرسالة بوضوح: يجب العمل على ايجاد ضغط دولي قادر على اخراج الاحتلال السوري من لبنان من دون اللجوء الى عنف عسكري. وتجدر الاشارة الا ان اميركيين لبنانيين من غير المسيحيين قد كان لهم حضور ملحوظ في ردة الفعل الايجابية لخطاب البطريرك. اذ ان العديد من الدروز الاميركيين وعدد لا بأس به من السنة والشيعة المعارضين للهيمنة السورية في وطنهم الام باتوا في خانة المؤيد لهذه الحملة. وهكذا صورة لمجتمع اغترابي متعدد الانتماء سوف تؤثر على الصحافة والادارة الاميركيتان. وانما السؤال المركزي يبقى هو هو. من سيقوم بمتابعة هذه الحملة، وهندستها وتوجيهها الى الهدف المطلوب ؟

هل سيحصد ما زرع ؟

مما لا شك فيه ان رحلة البطريرك قد زرعت شعورا هاما بالمسؤولية لدى مئات آلاف الموارنة والمسيحيين اللبنانيين، والدروز والمسلمين المؤيدين، في الولايات المتحدة وكندا. ومما لاشك فيه ان الكنيسة الكاثوليكية الاميركية قد فهمت رسالة رئيس الكثلكة المشرقية وباتت على استعداد لدعم خطواته الدولية انطلاقا من واشنطن.
ومما لا شك فيه ان قيادات الاحزاب والتنظيمات اللبنانية في اميركا الشمالية باتت امام مسؤولية توحيد جهودها والانطلاق في عمل مشترك سريع وهادف. ومما لا شك فيه أيضا ان الدولة اللبنانية وسوريا قد ادركتا أهمية الحوار مع بكركي، ليس فقط كأحدى كنائس لبنان الوطنية، بل عمليا كعاصمة لهذا اللبنان الآخر المتحرر من النفوذ الخارجي والمعبر عن أكثر من الموارنة والمسيحيين.
وهنا، لا بد من ربط التغيير الذي احدثه البطريرك في المعادلة، عبر تعبئة لجناح لبنان المغترب، بمدى قدرة هذا الجناح في التحرك الجدّي. وبكلام أبسط، فلقد تقدم البطريرك بهدية كبيرة الى كل من القيادات اللبنانية ــ الاميركية والكنيسة المحلية. البطريرك قدّم لهذه المؤسسة العلمانية ــ والكنسية المارونية المشتركة، شرعية تحرك مع المليون ونصف من جماهير الجاليات، باتجاه معيّن واضح. فلقد أيقذ صفير المجتمع اللبناني المتواجد في اميركا الشمالية، فهل تتمكن القيادة الروحية والسياسية لهذه الجالية من اكمال الطريق الذي شقه البطريرك، ام تبقى طريقا لا تصل الى قلب القرار الدولي.
فهل ان الكنيسة المارونية استنفدت آخر طلقة باتجاه الحل، ام ان رحلة البطريرك صفير كانت الخطوة الاولى في رحلة أكبر، باتجاه تحرير لبنان.

الدكتور وليد فارس، برفوسور في العلوم السياسية في جامعة فلوريدا اطلنطيك.

Florida Atlantic University

مؤلف كتاب:

Lebanese Christian Nationalism
The Rise and Fall of an Ethnic Resistance.